نمر شعبان ومحمود الصفدي:
"تحت السماء الثامنة"

ناقشت الندوة كتاب "تحت السماء الثامنة" للأسيرين نمر شعبان وخاله محمود الصفدي. وقع الكتاب، الصادر في 2007، في (111) صفحة من الحجم المتوسط، تزينه رسومات للأسير محمد أبو عارف.

جميل السلحوت:

بداية، اسمحوا لي أن أهنئ نمر شعبان الصفدي لمناسبة الإفراج عنه بعد أن قضى ما يقارب السبعة عشر عامًا أي ما يقارب نصف عمره وراء القضبان، كما نتمنى الإفراج العاجل لخاله الأسير محمود الصفدي، ولكل أسرى الحرية في كل السجون على هذه المعمورة.

obeikandi.com

كذلك اسمحوا لي أن أصلي وإياكم لله تعالى طالبين الشفاء العاجل للأستاذ صبري الصفدي الذي كتب تقديم هذا الكتاب، وللمناسبة هو شقيق محمود وخال نمر صاحبي هذا الكتاب.

جاء في تقديم الكتاب فلسفة الكتابة عند الأسرى: "إن كل كلمة تخرج من بين القضبان هي تعبير قوي عن إرادة الأسرى، في محاولة التأثير المتبادل بينهم وبين الوطن، في مواجهة السجان الذي يحاول جاهدًا اختزاله بكل الأساليب والطرق، هادفًا إلى تحويل أسرانا إلى أرقام لا صلة لها بمجتمعها، لا في الماضي، ولا في الحاضر، أو المستقبل" (ص9).

الإهداء

يهدي محمود الصفدي الكتاب إلى خطيبته عطاف "التي عانقت روحي روحها رغم البعد والمسافات" (ص5). أمّا نمر فيهديه إلى والدته "الإنسانة".. سنديانة هذه العائلة الصفدية" (ص7). وإذا كان الإهداء يعبر عن الحب والوفاء، إلا أنه يكشف، بل يؤكد فضيحة إنسانية، يتحملها الجلادون وسارقو الحريات، ألا وهي أن ضحاياهم لا تقتصر على الأسرى فقط، بل تتعداهم إلى آخرين، فهذه عطاف خطيبة محمود، حرمها سجن الاحتلال من حقها الإنساني والطبيعي بالزواج والإنجاب كبقية نساء العالم، عندما أغلقت أبوابه على خطيبها، لكنها تبقى على وفائها لخطيبها، في انتظار اليوم الذي سيأتي لا محالة، وهو يوم الإفراج

عن محمود لتكتمل فرحتها بالزواج. وهذه أمّ نمر أيضًا التي أمضت سنوات الاحتلال متنقلة من سجن إلى آخر لتزور ابنها أو أحد أشقائها، أو لتشارك في اعتصام أو مظاهرة أمام مبنى الصليب الأحمر، تضامنًا مع الأحبّة في الإضرابات الشهيرة عن الطعام، أو مطالبة بالحرية للأسرى.

ولا تقتصر عذابات الأسرى على الخطيبة والوالدة، بل تتعداها إلى زوجات وأبناء وبنات الأسير الذي غيب السجن معيلهم خلف جدرانه السوداء.

لماذا الكتابة؟

إذا كان المحتلون يهدفون إلى قتل إنسانية الإنسان، فإن الأسير يدافع عن إنسانيته، ويحاول التواصل مع الخارج ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. يقول محمود الصفدي: "أنا حاولت الكتابة كوسيلة للدفاع والصمود واختراق جدران الصمت لإيصال الصرخة"(ص11).

وإذا كانت بعض المذاهب الأدبية تقول إن الأدب انعكاس للواقع، وإن الكاتب ابن بيئته، فإن محمود الصفدي يؤكد هذه المقولة بقوله: "إن هذه المجموعة المتواضعة من الخواطر ليست من محض الخيال، بل هي قصص حقيقية أبطالها أشبال ورجال ونساء وزهرات عاشوا تجربة الأسر" (ص11).

السبب

تساءل البعض، خصوصًا من الطرف الآخر، عن السبب أو الأسباب التي تدفع شبابًا في عمر الزهور إلى مناهضة الاحتلال والالتحاق بتنظيمات تقاومه؟ ويجيب نمر الصفدي على هذا السؤال بقوله: "لم أشأ أن أصبح فدائيًّا.. بل إن الظروف هي من صنع منى واحدًا من آلاف الفلسطينيين الذين يدخلون تجربة تلو أخرى، من رؤية ضحايا الصراع، وتحسس آلام ومعاناة الظلم الناتج عن الاحتلال" (ص13).

والذي حرّض نمر على المقاومة هو الاحتلال نفسه، يقول: "الحدث الذي أثّر على حياتي كان في العام 1981 حين دخل يهودي متطرف من أصل أمريكي ويدعى "جودمان" إلى المسجد الأقصى، وارتكب مجزرة أدت إلى استشهاد عدد من المصلين وجرح العشرات، وكنت داخل الحرم، وشاهدته يطلق النار في جميع الاتجاهات، وكانت دماء الجرحى والقتلى تملأ المكان.. وكان أحد الذين سقطوا يدعى جهاد بدر، وكان مدرسًا في نفس المدرسة التي كنت أدرس فيها وهي مدرسة الأيتام الإسلامية" (ص13).

ونمر الصفدي بكلامه هذا يتساوق مع شاعرنا الذي قال: "نحن لا نعشق الموت ولكننا ندفع الموت عن أرضنا ." وكلامه هذا يحمل في

طياته طرحًا مفاده أن الحلّ السلمي العادل والدائم، والذي سينهي الصراع، لن يتحقق إلا بإنهاء الاحتلال، المسؤول عن كل هذه الشرور.

أموات مع وقف التنفيذ

يبقى الأسرى على قيد الحياة، في ظروف وأماكن لا تتوفر فيها شروط الحياة الإنسانية، والأحكام العالية توقف حياة الأسير عند نقطة اعتقاله، فلا يعود قادرًا على التفاعل مع مجتمعه، كما تمنعه من التواصل مع الحياة المعاصرة، يقول نمر: "صحيح أنك تكبر في العمر إلا أنك تبقى عند ذات النقطة التي اعتقلت عندها، العالم يتقدم ويتطور.. إخوتك الصغار يكبرون ويتزوجون وينجبون الأطفال.. هم مسؤولون عن أسرة، وأنت لا تزال بحاجة إلى من يشتري لك السجائر والملابس، ويدفع لك لتشتري أغراضًا من الكنتين" (ص17).

ومع ذلك فإن الأسرى يحلمون بالحرية، وأن يعيشوا حياتهم ضمن المتاح لهم، فهذا نمر يحصل على شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية والاجتماعية، ويواصل دراسته للحصول على الماجستير، كما أن غالبية السجناء يواظبون على المطالعة والتثقيف الذاتي، وتعلم اللغات والترجمة" (ص18).

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هو سر هذا الصمود وهذه القوة التي يتحلى بها الأسرى؟ ويجيب محمود الصفدي: "كملة السرّ التي

يمكن فيها الانتصار على شبح الانتظار الأخرس والأطرش هي التحلي بالصبر والصبر والصبر" (ص31).

مفارقة

يتكلم محمود الصفدي، في إحدى خواطره، عن حلمه بمصافحة المناضل نيلسون مانديلا الذي قال: "أنا لم أبحث عن النضال لأصبح بطلاً، بل لأصبح إنسانًا" (ص32). وتحصل مفارقة عجيبة "في يوم تحرر نيلسون مانديلا في 11/ 2/ 1990، وبعد ان أمضى 27 عامًا في السجن ، وفي اليوم ذاته، أصدرت المحكمة العسكرية الإسرائيلية حكمها الظالم والجائر بحقي بالسجن 27 عامًا". مانديلا تحرر من السجن بفعل نضالات شعبه الذي أوصله إلى رئاسة جنوب إفريقيا بعد القضاء على نظام التمييز العنصري، وقد شمل التحرير جميع الأسرى، ويري محمود ضرورة الاستفادة من هذه التجربة حيث يقول: "أرى أن علينا كفلسطينيين الاستفادة من تجربة جنوب إفريقيا وإيرلندا الشمالية، وغيرها من الشعوب التي كانت تضع قضية تحرير الأسرى في سُلّم أولوياتها، وقبل التوقيع على أيّة اتفاقية للسلام" (ص34).

أدب ونقد

أكثر ما تنطبق حكمة المتنبي: "وخير جليس في الزمان كتاب"على الأسرى، فهم يقرؤون بنهم أيّ كتاب يستطيعون الحصول عليه، وهم

يتذوقون الأدب ويميزون الغث من السمين فيه، لذا فإن إعجابهم بثلاثية الأديبة الجزائرية أحلام مستغانمي كان كبيرًا، يقول محمود الصفدي في رسالة إليها: "يكفي أن نتصفحك" في "ذاكرة الجسد" لتوقظ فينا الحب، أو نتصفح في "فوضى الحواس" لتنتفض كل حواسنا الخمس، ونقف في وجه آلة القمع، ويعلمنا "عابر سرير" أن الوطن ليس مكانًا على الأرض.. إنه فكرة في الذهن، نسجن ونشرد ونموت من أجل الفكرة التي لا تموت حتى بموتنا" (ص43).

وماذا بعد؟

إن كل كلمة وكل جملة في هذا الكتاب تحمل مأساة ولوعة، وتجلد من فيه إحساس جلدات قاسية، وتستصرخ أمّة أخرجها قادتها من التاريخ، وضيعوا أوطانها. تستصرخهم قائلة أما آن لهذا الليل الطويل أن ينجلي، وأما آن لآلاف الأسرى أن يتحرروا.

خليل سموم:

كتاب جدير بالقراءة؛ إنه رسالة موجهة إلينا وإلى العالم جميعه، تهدف إلى لفت الأنظار إلى مشهد قطاع مهم جدًّا من أبناء الشعب العربي الفلسطيني، وشد الاهتمام بقضاياه، والعمل على حلّها جذريًّا.

على الرغم من سقف الكتاب من نواح عديدة، وخصوصًا الناحية اللغوية، إلا أن الكاتبين نجحا في تصوير معاناتهما بصدق وصراحة.

من المؤكد أن مستقبل الشعب العربي الفلسطيني سيكون مشرقًا، ولو على المدى البعيد، وهذا ما عمل، ويعمل من أجله كثيرون من أمثال هذين الكاتبين.

وهنا، يحضرني قول محمود درويش:

"يا دامي العينين والكفين إن الليل زائل

لا غرفة التحقيق باقية ولا زرد السلاسل."

حذام العربي:

هذه نصوص بأقلام أسرى فلسطينيين ما زالوا يقبعون في السجون الإسرائيلية، قرأتها على مرحلتين، وأعدت قراءة بعضها لاختلاط الأمر علي، فمثلاً لم أعرف إذا كان الكاتب نمر شعبان الصفدي الوارد اسمه على الغلاف الخارجي للكتاب، هو كذلك نمر شعبان الذي وقع بعض النصوص الواردة في متنه، وقد أسقط الاسم الأخير في عملية تمويه لبلبلة العدو. هناك فوضى في الأسماء.

تغلبت على معظم النصوص صبغة الكتابة الكليشيهية الوصفية المسطحة ذات العبارات الأخاذة والشعارات الرنانة، التي تدور حول

obeikandl.com

الـوطن ومواقـف التـضحية والـصمود والفـداء التـي يراهـا ويستـسيغها موقعو النصوص. بعض هذه النصوص تحكي قصص صـمود الـسجناء، وعـلى الأخـص دعـم أهـاليهم وذويهـم، ووفـاء الأمّ والزوجـة والخطيبـة والابنة. وعليه جاء النص من باب العرفان بالجميـل والتقـدير، والـبعض الآخـر يقـص علينـا جانبًـا جـاء بمعظمـه مـسطحًا وهامـشيًّا لتجربـة الفلسطيني في الـسجن الإسرائـيلي، ومـا يتعـرض لـه مـن ممارسـات، فلـم يغـص في عمـق هـذه التجربـة، ولم يـسطر لنـا ملامـح الـنفس والوجـدان للفلـسطيني الأسـير، المـؤمن، إلى حـد الغيبـيات، بقـضيته وعـدالتها وبتضحيته في سبيلها.

هـذا الكتـاب اسـتطاع أن يعرّفنـي ويقـرب إلي بعـض المفـاهيم والمصطلحات اليوميـة لفلـسطيني/ ة في الـسجون الإسرائيليـة، كـما أنـه أعطى بعض المعلومات المتعلقة بنظام الحياة اليومية للأسـير، ووصـف لي شيئًا من عالمه الداخلي، ورسم بعضًا من أحلامه، ولـوّن الـبعض الآخـر، كـما أنـه وضـع أمـام القـارئ بعـض الخطـوط العريـضة لملامـح شخـصية السجين من حيث هو سجين.

فهمت عنوان الكتاب فقط عندما وصلت بالقراءة إلى الصفحة 41.. من عتمة الزنزانة تحت السماء الثامنة".

– النص رقم 21 بعنوان "أبو السكر ذاق مرارة 27 عامًا وبقي حلوًا" (ص 55)، فيه خليط مدهش من الكليشيهات المملة، والعاطفة الجياشة، والحدة الجارحة، والبساطة الأخّاذة. كل ذلك من خلال رجم المسؤولين (كذا بتعميم مبهم) بحجارة الضمائر الحية.

– النص رقم 23 بعنوان "أحلام تنتصر على القيد" (ص61) قطعة نثرية جميلة.

– في النص رقم 26 بعنوان "أمّ.. وعيد.. وأسير" ص 71 ما لم يقله النص أبلغ بكثير مما قاله.

– النص رقم 30 بعنوان "زيارة لنجمة الصبح" (ص85) جميل.

– النص رقم 31 بعنوان "أمّ.. وعيد.. وأسير" (ص87) جاء لطيفًا ومهضومًا.

– النص رقم 40 بعنوان "النرد" (ص106) مؤثر وجميل.

– الرسم (ص84) لافت للانتباه شكلاً ومضمونًا، ولا حاجة بنا إلى التعليق، فمواكب العناكب أبلغ من كل قول.

– تجربة السجن أضخم من أن تحتويها دفتا كتاب مهما عظم، أجاد وارتقى. إنها تجربة استلاب واغتصاب للنفس البشرية كما للجسد، فما بالك وهذا الفلسطيني الذي يخوضها قانع ومؤمن بها؟

هـذا الكتـاب يـشكل مـساهمة في رصـد هـذه التجربـة الإنـسانية الفلسطينية التي ما زالت تنتظر من يحفر لها قنوات تواصل واتصال مع القارئ الإنسان العربي الفلسطيني.

سمير الجندي:

رصد لنا الأخوان محمود الصفدي ونمر الصفدي واقع الحياة الأسيرة في سرد نثري تسجيلي دقيق، وذلك الأسير الذي صودرت هويته وحرم من حركته، ومن حقه في اختيار نمط حياته التي يريد، فتأتي على الأسير لحظة يظن فيها أن العالم الخارجي قد زال وانتهى، وأن عالم الأسر هو ما بقي من أشكال الحياة، فيتكيف معها ويبدع في هذا التكيف. ولكن الذكريات التي يحملها لا تمحى ولا تزول مهما حدث من أمور، فتحرك عواطفه باتجاهات مختلفة، فلا يجد أوسع صدرًا من الورقة والقلم للتعبير والإفصاح عن مشاعره تلك، فيرسمها بصور وأشكال مختلفة، ولكن جوهرها واحد لا غير، وهو التنفيس عما في القلب والنفس.

محمود عبد النبي:

علمت بوجود عوالم ما وراء العالم، وعالم ما وراء القضبان أحدها، وعلمت بحقارته ووضعيته، لكنه موجود، واختلق للشرفاء المناضلين.

في هذا الكتاب جاءت النصوص بسيطة جدًّا، ومما لا شك فيه أنها ليست بحجم المأساة التي تطرحها، فكان السفر مرهقًا للذهن والنفس بين مأساة وأخرى، إلا أن الحجارة قديمًا كانت تقدح لتلد الشرارة. إذًا فلتقدح هذه العقول داخل هذا العالم ليخلد النضال.

ليس في جعبتي الكثير مما أقول عن تاريخ وحقائق إلا إرسال ألف ألف احترام للصفدي، وكل الأسرى الذين يحرقون ريعان شبابهم من أجل شعب ووطن.

بثينة شقيرات:

تجربة أدبية رائدة لكلّ من نمر شعبان ومحمود الصفدي، تنقل من خلال خواطرهما الأدبية ومن تجربتها الاعتقالية المريرة على مدار سنوات طوال.. تنقل جزءًا من الواقع الذي يعانيه الأسير الفلسطيني القابع خلف قضبان الاحتلال بانتظار حل وردي يراوده منذ لحظة دخوله خلف قضبان جدران السجن.. تنقل الكتابة الأدبية التي بين أيدينا إحساسات مرهفة ومشاعر صادقة، قادت كلا الكاتبين عندما تكون القصة تتعلق بذاتيهما، أو عندما تنبض بحال زملائهما، ونحن نعلم أن سجون الاحتلال هي عالم قائم بذاته، يصعب على كتاب من عدد صفحات معين أن يترجمها أو يكتبها، لأن الوقائع أصعب وأمرّ من أن

تتحملها صفحات أو حتى مجلدات أمّهات الكتب، إذ إنها محاولة أدبية رأيت فيها أنا كقارئة، وليس كمختصة في النقد الأدبي عددًا من النقاط التي أود أن أشارككم بها.

تبرر الكتابات بشكل واضح أن الفلسطيني ليس إرهابيًا بطبعه، أو لا يوجد في جيناته الوراثية ما يدفعه لارتكاب العنف والإرهاب حسب الرواية التاريخية للآخر.

إبراز "نمر" للتجربة التي عاشها عندما كان داخل المسجد الأقصى، عندما تم اقتحامه من قبل متطرف صهيوني، وكيف قام بقتل المصلين بدم بارد، ومن ضمنهم الأستاذ الذي كان يعلمه، إذًا إنه الضغط والتوتر الذي يخلق منك مقاومًا تريد أن تنتقم لأمتك ولمقدساتك ولإنسانيتك، فإثارة مثل هذه النقطة يجعل من الأدب رسالة سلمية، تحمل في طياتها وجهة نظرنا للمسبب الرئيس للإرهاب.

يوضح الكاتب نمر أيضًا ويثير مفهوم الهوية الفلسطينية التي تبلورت بعد انخراطه في صفوف المقاومة، إذ إن مقاومة الشعب الفلسطيني جزء من هويته، هذه الهوية التي أصبح يدفع ضريبتها على كل المعابر، وهي جواز سفره لكل السجون.

أثارت الكتابات التي بين أيدينا وركزت على الجانب النفسي والمعاناة اليومية لحياة الأسر، فيختلف معنى الأشياء وطعمها ولونها، وتأخذ

شكلاً مغايرًا لما هو حر دون قيود، فالجدران خارج السجن عكسها في السجن، والوقت يستهلك، ولا يعطيك عكس الوقت- الزمن خارج السجن الذي تستهلكه، ويعطيك بعملية تفاعلية تبادلية.

أنت داخل السجن تبقى عند العتبة نفسها التي دخلت منها، ناهيك عن ما يصيبك من أمراض ووهن عام.

حياتك الاجتماعية تتوقف عند النقطة نفسها، بينما إخوتك يكبرون ويتزوجون، فينجبون، كذلك الحال مع أبنائك وبناتك الذين تنمو حياتهم وتتطور، ويرسمونها كما يريدون، لأنهم بشكل جزئي يملكون حرياتهم الشخصية الاجتماعية.

ينتقل الكاتب إلى أسلوب علاجي ذاتي، يصل إليه السجين حتى يقضي أيامه ولياليه وسويعاته وثوانيه؛ فهناك العمل اليدوي الذي تتقنه داخل أقبية السجن من مخلفات البيئة الشحيحة داخل السجن. إذًا نجد هنا أن المعتقل يكون أمام تحد مع نفسه أيضًا، كي يطورها داخل جدران زنزانته الرطبة، وينقل بألوانه ورسوماته وكتاباته تفاعلاً إنسانيًّا ثقافيًّا مع مَنْ هم خارج السجن، فهو يقرأ ويكتب عن حاله شعرًا ونثرًا ورواية، ويتعلم اللغات، ويذاكر حتى يحصل على شهادات علمية. إذًا السجين وإن مثل حركته المادية، إلا أنه بتحديه له خلق منه ذات فاعلة منتجة بكل الأصعدة. كذلك نجد أن الحلم في هذه الكتابات هو حيلة نفسية دفاعية،

يهزم بها السجين شبح الواقع، وينسج من خلال هذه الأحلام الوردية خريطة فرح يكون هو مفتاحها، فبدون أن يلتف السجين على واقعه المرير، يبقى فريسة لغول الزمن البطيء، الذي ينهش بأنيابه سني عمره، دون أن تكون له فسحة من أمل، فهو بالحلم ينام بين عياله، وهو بالحلم يحضن والدته، وهو بالحلم يداوي جرحه الذي نزف من سكين الزمن.

يوضح الكاتب أن السجين قادر على الصبر والتحمل، وقادر على خوض معركة الأمعاء الخاوية ولو كلفه ذلك حياته. وهو قادر على أن يجعل حاجاته الأساسية التي تحدث عنها "ماسلو" في قمة الهرم، وليس في أسفله، فالأهمّ بالنسبة إليه تحقيق ذاته وكيانه، ورفع مستواه التعليمي، فهذه سمة تميز إنساننا الفلسطيني.

التحدي الدائم ليصل إلى جامعته، ويتحدى الحصار حتى يدخل مدرسته. حاجاتنا الأساسية التي تحدث عنها "ماسلو" هي ثانوية عند الفلسطيني الأسير.

كذلك وجدت أن النصّ يبرز عنصرًا آخر من عناصر الصمود الذي يتطور عند الأسرى، إنه الصبر والجلد، فهم يتعلمون ذلك بشكل قسري، بحيث يدخل إلى ذواتهم، وإلى صميم جذور مكنونات شخصياتهم بشكل إرادي، يتعلمون بعده الصمود على آلام الجوع، والتعذيب، حتى يتكيفوا مع هذا الواقع أيضًا. هو جزء من العلاج

النفسي الذي يصنعونه بأنفسهم، دون حاجة لوصفه من قبل طبيب، أو صرفه من قبل صيدلاني.

تبرز الكتابات أن هدف التحرر الإنساني واحد (البحث عن الإنسانية)، فيستشهد بقول مأثور للمناضل الأسود مانديلا بقوله: "أنا لم أبحث عن النضال لأصبح بطلاً، بل لأصبح إنسانا"، وهذه رسالة إنسانية إلى كل من ينتمي إلى عالم الإنسانية، من خلف القضبان اللاإنسانية، لتتحرك من أجله العدالة الإنسانية.

أشار الكاتب إلى أن الفلسطيني داخل السجن هو أسير، وهو ابن لكل الفصائل والتنظيمات، وهذا جزء من استراتيجيات النضال داخل السجن. وتناول الكاتبان قضية مهمة، وهي قضية معاناة أطفال المساجين وفقدانهم لحنان الأب أو الأمّ أو الاثنين معًا. الشعور بالحرمان العاطفي، والتجربة المريرة في مداهمات البيوت وهدمها تترك أثرًا نفسيًّا مدمرًا على شخصيات الأطفال الذين يحتاجون زمنًا حتى يعبروا ويتجاوزوا هذه الأزمة. شبيه بقصة فداء التي فتحت عينها على الجنود يعبثون ويدوسون ممتلكات المنزل، ويحوطونها ويجرون والدها إبراهيم مشعل إلى السجن. شبيه بذلك قصة الطفلة ليلى خالد عويسات عندما كانت في الصف التمهيدي، والتي آثرت الذهاب لزيارة والدها على حضور مسرحية للدمى كانت تتمنى حضورها لأنها تعشق المسرح.

ذهبت ليلى لزيارة السجن، إلا أنها لم تتمكن من رؤية الوالد لأسباب خاصة بمصلحة السجون، وعادت في اليوم التالي تبحث عن الدّمى في ساحة المدرسة، وتسأل زميلاتها عن الممثلين: أين هم؟ إلا أن زميلاتها أجبنها: (خلصت)، ومن بينهم ابنتي آية. فأخذت تبكي وتصرخ حزنًا على عدم رؤية المسرحية، حيث حرمها الاحتلال من مقابلة والدها، وهو نفسه الذي حرمها من أن تتمتع بمشاهدة المسرحية، فأيّ نفسية يكون بها أطفالنا مع هذا الكم الهائل من الحرمان؟!

أثار الكاتبان، بشكل واضح، دور المرأة في حياتها، وضربا نماذج مختلفة، على سبيل المثال: هي الأمّ مصنع الثوار، وهي الأخت المناضلة، وهي الرفيقة داخل السجن، وهي الخطيبة والحبيبة الصابرة والمناضلة والوطنية والمخلصة، وهي الكاتبة الجريئة الواضحة الداعمة. لم تكن المرأة في كتاباتهم تقليدية سلبية، بل كانت أنموذج المرأة الفلسطينية التي تجدها أمامك وليس خلفك، في كل الأزمنة والأمكنة واللاحدود؛ صبرية وعطاف، بنت البلد، أمّ محمد، سناء سلامة، وغيرهن نماذج رائعة، كان لهن نصيب من كتابات محمود ونمر.

يظهر في الكتاب أيضًا، وخصوصًا كتابات نمر، الروح الكوميدية الساخرة، وأسلوب النقد الساخر الذي أرى أنه إذا أكمل بهذا الأسلوب

والنمط سوف يكون له نفس وحس متميز، يصل معه إلى مستوى من الجودة والتميز.

بعض الملاحظات:

جاءت الكتابات خليطًا من الخواطر، وقصص وحواديت ورسائل وحوارات، من الصعب عليّ أن أصنفها في جنس أدبي معروف، إلا أنها بمجملها كانت ذات رسالة إنسانية تعبيرًا صادقًا ونبضًا متشحًا بأنات الأسر.

أسلوب نمر كان أقرب إلى الأدب، بينما أسلوب محمود فقد طغت عليه الخطابات والبيانات السياسية. وتمشيًّا مع مقولة إن السياسة تفسد الأدب، أتمنى أن تكون كتاباتها أدبًا خالصًا.

عندما كتب محمود "سأنتظر حتى آخر العمر" كان عليه القول: عندما نكمل مسيرة حياتنا وننسج من خيوط الشمس الذهبية غدنا الآتي. ولا يكمل الفقرة الأخيرة، لأنه من وجهة نظري أن هذا البيان أفسد صدق الإحساس، ورومانسية الكلمة، ووداعة إيقاعاتها في القلب.

وكلمة أخيرة منكم أقتبسها "البنفسج لا يحزن على أوراقه التي تتساقط في الخريف، لأنه يعلم أن الربيع يقف على أعتابه".

أتمنى أن يكون الربيع دائمًا من نصيبها.

سوسن دكيدك:

الوطن ليس هو مكان على الأرض، وإنما هو فكرة في رؤوسنا نعيش للدفاع عنها.

(نشرة المقارنة بين المعتقل وستار أكاديمي).

حينما قرأت النشرة التي وزعت علينا في الجامعة استغربت كثيرًا، وذلك لأنني لم أكن على علم بأن الأسرى يشاهدون البرامج التلفزيونية، ولأنه لا مجال للمقارنة بين ستار أكاديمي والمعتقل، على الرغم من أنني أعجبت بسعة فكر من كتب هذه الفقرة التي وردت في الكتاب. ولفت انتباهي بهذه النشرة قوة ملاحظة كاتبها، فهو لم يترك لا شاردة ولا واردة في البرنامج إلا وقارنها بأمور في المعتقل.

إبراهيم جوهر:

يلفت الانتباه في هذا الكتاب أمران، أحبّ أن أشير إليهما وهما: الأوّل فهو الثنائية التي يقوم عليها الكتاب، وهي ثنائية ضدية، متعاكسة، من شأنها توضيح الصورة وجلاؤها بعمق ووضوح وتأثير. أمّا الثاني فيتمثل في اللغة الأدبية الإبداعية المعتمدة على التصوير، أو الإيحاء والتي تدفع القارئ إلى أن يتخيل ليحلل ويتعمق ويتوصل إلى النتائج الخاصة به، أو تلك التي أرادها له الكتاب والكاتبان .

إن القارئ ليتوقف إزاء العنوان "تحت السماء الثامنة" وهي سماء السجن التي أضيفت إلى المعروف من السماوات السبع، وفي هذا ما فيه من حسن توصيف وقوة اختيار، وقدرة على التأثر والتعبير. إنه التوجه الخفي الكامن لدى الكاتب والمُلِح على الإضافة النوعية المتميزة، أو هو يضيف سماء إلى السماوات السبع، كما يضيف ليلة إلى الليالي (ص108).

ثم انظر إلى هذا التمديد لزمن ولادته إذ يقول: "ولدت في مدينة القدس بعد مولد سيدنا المسيح عليه السلام بـ 1968 عامًا (ص13)، لتقترب من تحديد ما أقصد، فبعد ولادة رسول المحبة والسلام بـ 1968 عامًا، ما زال الظلم والعدوان والسجن والصلب (الشبح) قائمًا. ثم انظر إلى قوله (سيدنا)، فالسيد المسيح هو سيد لنا نحن، نحن البشر، وهو نبي الله وكلمته وسرّه، وهو الفلسطيني ابن الجليل، ثم يقول الكاتب (عليه السلام) السلام عليه والسلام ليس لنا. ما هذه الجملة التي تبدو بسيطة وسريعة؟ ولكنها تحمل حزنها وأملها وألمها في طياتها وفي إيحاءاتها. وفي نهاية بطاقة الهوية الشخصية هذه (ص13-14) يجيء التعريف الحاسم: "بطاقة فلسطيني أخذ زمام الحرية بيده (المعتاد قول: زمام المبادرة) وأعلن من نفسه إنسانًا ينتمي لوطن أسير). أمّا الثنائية الضدية التي عينتها، فهي ثنائية المقموع والقامع، أو قل الليل والنهار، أو الجسد والتحدي، أو الحياة، إنهما قصتان: واحدة نعيشها وأخرى نقرأها"

(ص92)، أو العيد في السجن وخارجه، أو "أن تكتب يعني أنّ عليك أنْ تغمس ريشة قلمك في القلب بدلاً من الحبر وإلا فالصمت أفضل (ص94)، أو تلك الأمّ الأميّة التي تعبر عن هموم الأسرى وذويهم بكل طلاقة ووضوح، يعجز عنهما أكفأ السياسيين أحيانًا" (ص95)، أو: "سامحيني لأنني لم أستطع أن أوفيك حقك بهذه السطور.. لكن تأكدي أنك في قلبي تتألقين كفجر ساطع" (ص95)، أو: الجمع بين الوقت والهواء في المطالب... الخ.

ثم انظر إلى هذه الثنائية الجميلة التي سماها أجدادنا الطباق إذ يقول: "... وأنا على وشك البكاء من شدة فرحي بهذه الأخت" (ص94)، فأيّ تعبير أبلغ في تصوير الحالة النفسية من هذه الصورة الجميلة الموحية والذكية المصاغة بأسلوب أدبي جميل؟!

أمّا الثنائية الأوضح التي أخذت شكل المقابلة بين موقعين وصورتين، ونهجين وإنسانين، وحياتين وعالمين، ورؤيتين ولغتين، وغناءين ونشيدين، فهي الرسالة إلى طلاب ستار أكاديمي (ص87-89)، وهي الرسالة الأشهر والأجمل والأذكى والأكثر إبداعًا وألمًا وثقة وحسرة وانفعالاً وبكاءً.

وفي الرد على هذه الرسالة جاءت عبارة "ها أنت غنيت من أكاديميتك" (105). حقًّا أيّها العزيز الرائع نمر، لقد غنّيت وأجدت

الغناء، ولكنه غناء خاص بنكهة إنسانية وطنية- فلسطينية حميمة، لتثبت مرة أخرى أن السجون التي بنيت لقهر إرادة الإنسان قد تحولت غالى متعاطف معه، أو قل إلى قلاع لتخريج الرجال والأدباء.

إن هذه السماء الثامنة التي كتبها الأخوان نمر ومحمود الصفدي صرخة في وجوه الكثير من الآخَرين (جمع الآخر).

بقيت لدي ملاحظتان، الأولى: هناك إجادة تامة لكتابة فن القصة القصيرة جدًّا ،كما يتبدى جليا في الصفحة (101) تحت عنوان: شهادة البكالوريوس وسين جيم نون؟ أمّا الثانية: فإن حضورًا هائلاً ومميزًا للمرأة يجب التوقف عنده في هذه السماء الثامنة، فهي الأمّ والأخت والحبيبة والخطيبة، إنها الصابرة والمناضلة والمتحملة التي ما هانت يومًا.

باختصار.. إنها المرأة الفلسطينية- الأنموذج المطلوب والموجود وإلى الأمام.

محمد موسى سويلم:

"من سجن عكا طلعت جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازي". أبدع الكاتبان نمر ومحمود في نبش ذاكرة لن تنمحي أبدًا من عقول الفلسطينيين، فمع بناء جدار التوسع الاحتلالي، أصبح الجميع يعيشون في سجن، وأصبح الجميع يعانون من آلام المواصلات والتواصل، وعلى

الحواجز كتبت أروع الروايات، ونُسجت أبدع المسرحيات، وحصلت أصعب الولادات، فكتب الأدباء والمثقفون، وأنشد الشعراء، وغنى الزجالون والمغنون والمغنيات. ومع هذا وذاك، يبقى للسجن والمعتقل والمحاكم العسكرية خاصية في نفوسنا ونفوس أسرانا، وتبقى ظلمة السجن وجبروت السجان ذات خصوصية معينة، فتبقى معبرة عن ضمير ووجدان وحضور الجسم الفلسطيني المرغم على العيش والتعايش، في ظل ظروف غير إنسانية، ولا حتى حيوانية.

"سلام من صبا بردى أرق - ودمع لا يكفكف يا دمشق"

كتب الكاتب رسالة إلى الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي، ومن عسقلان إلى بيروت، فهي وحدة في الدم والنسب والمصير المشترك، ثم عن سجن النساء أو الأسيرات، وكم هو الحكم؟ أسرى وأسيرات في عمر الزهور، وعن وحشية السجانين والمعاملة القاسية، وعن ولادة أمّهات أسيرات في السجن.

"ناس إيدها في النار وناس إيدها في الميّة".

"اللي بنضرب بالعصي مش زي اللي بعدها".

عن ستار أكاديمي، ذلك البرنامج الـــــــ جدًّا جدًّا، ومقارنة هذا البرنامج بالسجن أكاديمي، فأين الثرى من الثريا؟ ويا ترى ولا أدري إن سمعتم عن بال ستار والقائمة عليه بيالارا، والتي تهتم

بأصوات الأطفال وإبداعاتهم، والتي أتمنى لها النجاح، وإن شاء الله تحذو حذوها مؤسسات أخرى، لنثبت للعالم أننا شعب يتسامى فوق الجراح، ونستطيع العيش في كل ظروف الحياة مرها وحلوها، وأننا نستطيع أن نجلس أمام التلفاز لنشاهد فضائية (---) أكثر من أيّ برنامج أو فضائية أخرى، أليست هذه ديمقراطية؟

نقش الكاتب أروع أحلام الذكريات في الحديث عن أيام ما قبل السجن، وأيام السجن، وجسّد بطولة الأمّهات وصبرهن، والتضحيات في سبيل رفع معنويات السجناء، وتخفيف الآلام التي يمر بها السجين، وذكّرنا الكاتبان بأسماء سجناء كاد الزمن أن يطوقهم، فدقوا بذلك ناقوس الخطر، مطالبين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من هؤلاء أن يرووا تلك الذكريات، وأن يرددوا ما قال شوقي:

"وللحرية الحمراء باب - بكل يد مضرجة يدق"

ملاحظاتي حول المذكرات:

1. الاسم "تحت السماء الثامنة" أليس هذا إجحافًا بحق السماء؟ إذا كان سقف السجن سماء ثامنة، فماذا نقول لسقف الفِلل الفارهة والعمارات الشاهقة؟

2. استشهاد جهاد بدر، هو لم يكن مدرسًّا، بل كان طالبًا في دار الأيتام الصناعية أيضًا إذ إنه "لقياني"، أي من بيت لقيا مسقط رأسي أنا.

3. استشهد مع جهاد بدر محمد صالح اليماني وهي يمنى من اليمن،ولم يذكر في المذكرة.

4. عسقلان هي بلدة فلسطينية، والمجدل هي أيضًا قرية فلسطينية، وكل واحدة لوحدها، وليس المجدل هي عسقلان (ص19).

5. حول تواريخ الكتابة والنشر؛ بدأ مثلاً بتاريخ 25/ 8/ 2004 وثمانية هو شهر آب ثم عاد إلى كانون ثان، أي الشهر الأول من العام. حبذا لو تم النشر بطريقة تسلسلية.

6. في صفحة الغلاف الأخير تعريف بأحد الكاتبين، وهو نمر الصفدي، ولم لم يعرف بالكاتب الآخر وهو محمود الصفدي.

(القدس 19/ 11/ 2007)

obeikandl.com